

العادات والاصلاح

كيف نعود الى التشريع الاسلامي

للأستاذ محمد محمد المدني

يشعر كل امرئ منا بأنه خاضع في نفسه ، وفي نظام بيته ، وفي دائرة عمله ، وفي كل ناحية من نواحي حياته ونشاطه إلى عادات متنوعة تتحكم فيه ، وتقرض عليه سلطانها الجبار وإرادتها القاهرة ، وتطبعه بطابعها من حيث يريد أو لا يريد . يشعر كل منا بذلك في نفسه ، ويشعر به في الناس من حوله لا فرق فيه بين طبقة وطبقة ، ولا بين بيئة وبيئة ، ولا يختلف فيه غنى عن فقير ، ولا كبير عن صغير ، ولا متمم عن جاهل . في الطعام والشراب عادات ، وفي اللباس والآثر عادات ، وفي الجلوس إلى الناس والتحدث معهم عادات ، وفي آليات عادات ، وفي الطريق عادات ... وهكذا . وإننا لنتنزه فرص الأيام والحوادث ، والأعياد والمواسم ، فننتخذ منها مناسبات لعادات شتى نحافظ عليها ولا نتسامح فيها ، وربما عدناها من شعارنا ، وحسبناها من تقاليد ديننا !

هذه فطرة في الإنسان لا بد له منها بقطع النظر عن شريف العادات وذميمها . قضت بذلك حكمة المليم الخبير ، ليكون الاستقرار والهدوء ، ولتتركز شؤون الحياة ، ولينجو الناس من الاضطراب والمفاجآت وأخطار القلب السريع والتطور اللعيف لذلك يجب أن يدخل في حساب كل مصلح ما للعادات من سلطان على النفوس ، ورسوخ في الأذهان ، واستقرار في المجتمع ولكن يجانب هذه الفطرة في الإنسان طبيعة أخرى هي طبيعة هذه الحياة نفسها . إن الحياة تأتي الركود ، ولا يصلح معها الجلود ، ولا بد لمن يريد العيش فيها أن يسارها إلى حد ما ، وأن يتدرج معها في سبيل الرقي والكمال ؛ فإذا ظل الإنسان هبداً لعاداته ، رازحاً تحت سلطانها ، لا يفكر في التحول عن نظامها للفروض قيد شمرة ، بل ينقد غيره ويصف عليه في النقد إذا رآه يفكر في هذا التحول أو يدعو إليه ، ويقف في سبيل دعوات الإصلاح والتجديد لاوياً عنقه ، مثيراً المشاكل ، فإنه يكون محترقاً لإنسانيته ملغياً لثقله جاهلاً بالحياة وما ينبغي للحياة !

وإذا أصرت طائفة من الناس على أن تصادر دعوات الإصلاح في دائرتها ، أو على أن تقف في طريق الحياة العاملة الناصبة المنتجة المجددة في غير دائرتها لمجرد المحافظة على العادات والتقاليد الموروثة ، فقد عرضت نفسها لعوامل الانحلال والفناء

هي إذن معركة حامية الوطيس بين طبيعتين متقابلتين : طبيعة الخضوع للعادات والتأثر بسلطانها ، وطبيعة الحياة التي تطالب إلى كل حي أن يسارها وتتدرج معها ، ولا بد من تدخل العقل للفصل في هذه المعركة ووضع علاج يوجد به التوازن بين هاتين القوتين الضروريتين للإنسان . لا بد أن نزن كل شيء بميزان العقل ، وأن نسترشد بنور هداه في كل طريق نسلكه ، وأن نزل على حكمه راضين غير متبرمين

في كل أمة دعاة إلى الإصلاح يقفون منها موقف المرشد الناصح ، ويمكنون على مشاكلها ليضموا لها الحلول ، وعلى أمراضها ليصفوا لها العلاج

وكثيراً ما يقع بين الناس وبين هؤلاء المصطفى النادين بمبادئ الإصلاح خلاف ، وقد يؤدي هذا الخلاف إلى إثارة للتأجب ووضع المقبات في طريقهم ، بل قد يؤدي إلى التشكك في نياتهم وأغراضهم وانصراف النفوس عن دعوتهم . ولست أرى في ذلك شذوذاً ، وإنما هو شيء طبيعي ، لأن المصلح الغامى إلى الخير يحاول أن يلفت الناس عما ألفوا . يحاول أن يتبرعهم من أحضان عادات حبيبة إلى نفوسهم ، عزيزة عليهم . يحاول أن يصادر الأهواء والذرات وشهوات النفوس ، فلا يجب أن تكون دعوته ثقيلة على الأسماع ، كثيرة الخصوم والمستهزئين

وقديماً جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب بدين العقل والفطرة والسيادة والمزة والكرامة الإنسانية ، قهارومه ووقوا في سبيل دعوته استكباراً أن يتركوا ما ألفوا ، أو ينخلعوا مما ورثوا ، وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنما على آمارم مقتدون ! ولم يقفوا عند هذا الحد بل زعموا أنهم لا يدركون ما يقول ، وأن قلوبهم في أكنة مما يدعو إليه ، بل رموه بالكذب والافتراء وهم الذين لقبوه من قبل بالصادق الأمين ؛ ورموه بالجنون وهم يعلمون أنه أقوام عتقا وأعظمهم رشادا

هكذا قابل الناس دعوتهم سيد المصلحين ، ويمثل هذه اللعاوي

والتهم واجهوه . والتاريخ يحدثنا عن كل مصلح يمثل ما حدثنا به
عنه ، فكم شرد المصلحون وعذبوا ، وكم أودوا واضطهدوا ،
وكم قنفوا بالهم ، وديرت لهم المؤامرات ، وحيكت من حولهم
الأكاذيب ، فما هتوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا
وما استكانوا ، والله يحب الصابرين

لا بد لعدة الإصلاح إذن من الصبر وتحمل المشاق ، ولكن
هذا وحده لا يكفي ، بل لا بد إلى جانبه من اليقظة وحسن
التصرف وقدير الظروف والأحوال حتى قدرها ؛ وإنما يكون
ذلك بالتدرج دون الطفرة . لقد تدرج القرآن بالمسلمين من قبل ،
فكان ينزل أولاً في بيان العقيدة والاستدلال عليها ؛ وكان ينزل
بمكارم الأخلاق ؛ وكان ينزل في الزاوية على العادات التسمية .
ثم جعل - بعد أن استقرت الدعوة - ينزل بتشريع الأحكام
شيئاً فشيئاً ، حتى إن قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، لم ينزل
إلا في العام الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو
لم يفاجئهم بالدين كاملاً قد استوفى جميع مبادئه وأحكامه ،
ولو فاجأهم بذلك لغشلت دعوته ، وقل أنصاره وحماته !

لقد تناولت هذا المعنى في مقال لي قبل اليوم ، وإنما أسوقه
الآن ليتخذ منه المصلحون عبرة ويعرفوا ما فيه من مرضع الأسوة
الحسنة ، فيتدرجوا بالأمة كما تدرج القرآن
لقد بدأ هنا الدين غريباً ، وما هو ذا يسود غريباً كما بدأ :
أصبحت تقاليدنا غير تقاليد الإسلام ، وأخلاقنا غير أخلاق
الإسلام ، وأحكامنا غير أحكام الإسلام ، وقوانيننا غير قوانين
الإسلام . أصبحنا نحرص على العادات التي ورثناها عن الآباء
والأجداد أكثر من حرصنا على الدين . وإن أحدنا ليثور وتسلم
إذا حاول محاول أن يصادفه في عادة من عاداته ، ولا يشور إذا
اعتدى معتد على دينه ، زاعماً أن الدين رباً يحميه ، وما يريد
بذلك إلا تزيير سكوته على العدوان وإثارة للسلامة !

عند ما أبطلت عادة الاحتفال بالحمل انقطعت الملاقة بيننا
وبين حكومة الحجاز ، وظل حكامنا ووزراؤنا معنيين بهذا الشأن
في كل مفاوضة لإعادة هذه الملاقة ، حتى إذا نجح وزير من
وزرائنا في إعادة الاحتفال بالحمل وإرسال الكسوة عددنا ذلك
ظفراً ببادل الناس التهنئات بالتوفيق إليه ، ولكننا مع هذه الفيرة
للشديدة على تقليد من تقاليدنا نرضى بهذه التشريعات الجبلوية ،

لا تقول لكم : اقبلوا التشريع في البلاد رأساً على عقب ،
ولا تقول لكم فوضوا الشركات والمصارف التي تتعامل بشيء ما يقضى
به الدين فيما بين يوم وليلة ، ولا تقول لكم نفذوا ما جاءت به
الشريعة الإسلامية في أحكام القضاء والقنوات دفعة واحدة ؛ وإنما
قول لكم تدرجوا بالأمة في سبيل العودة إلى أحكام الإسلام كما
تدرج القرآن بالمسلمين من قبل : خذوا في كل قانون تضمنونه منذ
اليوم ، وفي كل تعديل تقررونه ، بمبادئ القرآن ، ولا بأس من أن
تؤجلوا ما لا قدرن عليه حتى تصدوا النفوس له ، وتعتقوا أنفسكم
وتعتقوا الناس به . فإنكم إذا بدأتم السير في هذا الطريق تمهد
أمامكم ويسر لكم ، ولم تصادموها به تهنأ من تهنئاتكم !

« ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب
الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ؟ »

محمد الحارثي

للدرس بكلية الشريعة

حكم في اللجنة للثأفة رقم ٨٨٨٣ سنة ١٤٠٠ ضد صلاح طعمة البقال
بشارع البستان بتاريخه ١٠٠ قرشي صاغ ونشر الحكم بمجلسي الإسلام
والرسالة ليحه ملغاً أزيد من التسمية .

حكم في اللجنة للثأفة رقم ٨٨٨٣ سنة ١٤٠٠ ضد صلاح طعمة البقال
بشارع البستان بتاريخه ١٠٠ قرشي صاغ ونشر الحكم بمجلسي الإسلام
والرسالة ليحه ملغاً أزيد من التسمية .

حكم في اللجنة للثأفة رقم ٨٨٨٣ سنة ١٤٠٠ ضد صلاح طعمة البقال
بشارع البستان بتاريخه ١٠٠ قرشي صاغ ونشر الحكم بمجلسي الإسلام
والرسالة ليحه ملغاً أزيد من التسمية .

حكم في اللجنة للثأفة رقم ٨٨٨٣ سنة ١٤٠٠ ضد صلاح طعمة البقال
بشارع البستان بتاريخه ١٠٠ قرشي صاغ ونشر الحكم بمجلسي الإسلام
والرسالة ليحه ملغاً أزيد من التسمية .